11 رايـة الخيـــر

وبعد :

"فقد افتضحت الجاهلية، وبدت سوأتها للنـاس، واشـتد تـذمر النـاس منها، فهذا طور انتقال العالم من قيادة الجاهلية إلى قيادة الإسلام" [1].

بهذه البساطة عبر سيد قطب / عما يرى.

إنه يتحدث عن أمر عظيم جليل، وانتقال ضخم، لكنه من أمر الحقائق.

ولهذا حفته البساطة، وكذلك شأن الحقائق دومًا.

فحينما يكون الأمر حقيقة لا يحتاج إلى كثير بلاغـة، ولا إلى إطنـاب، أو يهرج وتزويق.

إنها الحقيقة التي يعيشـها الغـرب، فهـذا الخـواء الروحـي، والانحـدار الجنسي، والتمييز العنصري، والظلم الاستعماري، لم يعد إفلاسا مجردًا، بـل فضيحة كبيرة للحضارة الغربية.

وهي الحقيقة التي ترهق المجتمعـات الشـيوعية، ولـو لم يكـن فيهـا إلا الإرهاب وكبت الحريات لكفتها فضيحة.

كما أنها الحقيقة التي تشير إلى عدل الإسلام، وسـماحته، وسـكينته التـي يهديها إلى القلوب التي أتعبها قلق المادة.

إن تأملا قصيرًا يرينا بوضـوح أن شـعوب الأمـة الإسـلامية قـد ملـت وسئمت ما اقتبسوه لها من مادية الغرب ونظمه، وما فطنوا له فقلـدوه مـن

---

(١) مقدمة سيد قطب لكتاب الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين/ ٢٠.

أساليب الإرهاب والتجويع الشيوعي، وأصبحت القلوب والعقول على أتم الاستعداد لمسيرة إياب إلى الإسلام ثانية.

ولكن بينها وبين الوصول إلى دار السلام مفازة.

ولابد للمفازة من دليل.

وشرط الدليل أن يكون خبيرا مميزا للأثر، متفرسا، ناظرا في أبراج السماء.

فإن وجد الدليل فإن الوصول قريب.

جاذبية الدعاة

وخير ما يكون الدليل إذا كان حاديا يجيد الترنم.

إنه يطرب الذين وراءه، فيتبعونه.

وهذا هو ما تصوره بلاغتنا القاهرة، لأن من يتبع طربا قد تعتريه غفلة، أو تفجؤه عثرة، أو تغلبه إغفاءة، فيتوقف.

أما بلاغة إقبال فأتم وأكمل وأبدع.

إنه يجد في إدراك الذات قوة جذب تجبر الآخرين على الارتباط بها، فإذا جمع المسلم الحر الفطن ذاته فكان داعية فإنه يدير من يريد في فلكه.

يقول إقبال:

شدت الأرض قواها، فالقمر

في طواف حولها، لا مستقر [1].

---

(١) ديوان الأسرار والرموز/ ١٥.

فلأن الأرض تحفزت، وخزنت من قوة الجذب ما استطاعت أجبرت القمر على الارتباط بها، والدوران حولها، حتى بات لا يحدث نفسه بفرار.

فكذلك التفاف الناس حول دعوة الإسلام يكون حتميا إذا شد الدعاة قواهم، حتى يعتاد الناس الدوران في فلكهم، ويجدون في ارتباطهم بالدعوة نوع اضطرار.

فأنتم أنتم أيها الدعاة من يتحكم في الأمر.

لا نماء لأحزاب الضلال إن شددتم قواكم.

ولا مناص للناس آنذاك، إنما هم أسراكم.

وإنما شد القوة في الاجتماع.

ونتيجة الاجتماع أن يكون الصف.

ومن أتى صفا غلب، إلا أن يشاء الله غير ذلك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف].

وتنادى السحرة الذين عارضوا موسى قبل إيمانهم، فقالوا: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾ [طه:٦٤] كما أخبر الله -تعالى، وبذلك عبروا عن التجمع المنظم للجاهلية في كل عصورها من خلال هذا الشعار الذي يعطي درسا بليغا لمن يحزن على مصير المسلمين وليس لديه إلا التأوه.

إن الجاهلية المنظمة لا يغلبها إلا إسلام منظم.

ولا ينتصر دعاة الإسلام اليوم، إلا إذا جمعوا خيرهم ثم أتوا صفا واحدًا متراصًا مقتحمًا.

ارفع للخير راية

ولكن كيف يتم التجمع بلا مبادأة من صاحب خير؟

إنها المبادأة اللازمة، تارة تكون تكبيرًا ينبه، وتارة تكون نارًا تلفت، وتارة تكون راية يبصرها أهل الخير فيتجمعون حولها، ولا ينقص المسلمين اليوم في كثير من البلاد إلا هذه الراية، فإنهم كثير عددهم غزير عملهم، جميل ذكرهم، إنما أضعفهم التشتت والضياع.

وقد زار عبد الوهاب عزام / معظم بلاد الإسلام، وساح في بلاد العرب وتركيا والهند، ودرس واقع المسلمين عن قرب، فما خرج بغير هذه النتيجة، فعاد ينادي الخيرين أن:

(لا يخدعنكم الفساد الظاهر والشر المستشري، ولا يهولنكم ذكر فلان وفلان من المفسدين، ففي الأمة أخيار أكثر ممن تعدون من الأشرار، ولكنها راية رفعت للشر فأوى إليها أشرارها، وهرع نحوها أنصارها، ونفر منها الأخيار فلم ينحازوا إليها، ولم نسمع أصواتهم حولها، ولو رفعت للخير راية لانحاز إليها الأخيار وحفوا بها وسكنت أمة الأشرار وقل جمعهم وخفت ذكرهم.

إن في الأمم خيرا وشرًّا، وفسادًا وصلاحًا، ومصلحين ومفسدين، فإن رفعت راية للخير انضوى إليها الأخيار في كل طائفة، وغلب بها الخير في الأنفس التي يغلب شرها خيرها، ونبت خير في نفوس لا خير فيها، فإن الإنسان لا يخلو -وإن عظم شره واستشرى داؤه- من نزعة للحق كامنة، وعاطفة للخير مستسرة) [1].

---

(١) الشوارد لعبد الوهاب عزام/ ١٧٣.

وهذا الكلام من الحق والصواب الظاهر.

وكثير من أهل الخير إنما وقعوا في الأوهام من هاهنا، رأوا ضخامة الفساد في بلادهم، وتغير الموازين والمقاييس، وتسلط الأشرار، فظنوا أن الأمر قد فلت، واستحكم الكفر، واختاروا إما السكوت وإما الهجرة إلى بلد أخف شرًا يتعطلون فيه.

الهجرة المفضولة

وقبل، حين استحكم أمر الجهمية والمعتزلة والشعوبية أيام المأمون والمعتصم، والواثق، ووسدت الأمور إلى غير أهلها، تألم القائد العربي الغيور أبو دلف القاسم العجلي، وكان من كبار أهل الخير، صحيح العقيدة، ظاهر النبل، مناهضا للشعوبية التي يرعاها بعض القادة، فاندفع يقول:

ومقام الكريم في بلد الهـــون ... إذا أمكـــن الرحيـــل محـــال

حيث لا رافعا لسيف من الضيم ... ولا للكـــماة فيهـــا مجـــال

في بلاد يذل فيها عزيز القوم ... حتـــى ينالـــه الأنـــذال [1]

ثم هاجر في معسكره بمدينة الكرخ التي تقع أطلالها اليوم على الطريق الذاهب من العراق إلى خراسان، قبيل كرمانشاه، وهي غير الكرخ المعروفة ببغداد.

كان حرًا، لكنه كان فردًا، ولذلك لم يأب الهجرة، أما الإمام أحمد ابن حنبل، فكان في تلك الأزمة حرًا داعية، ولذلك أبى الهجرة، وأقام ببغداد، ورفع الراية، فكان الثبات، والتثبيت، فهزم جمع البدعة.

---

(١) كتاب (بغداد) لابن طيفور/ ١٣٣.

وهكذا شأن الحر الداعية دومًا، يصبر على العيش والمقام في بلده، ليلتقط من مجتمع مستخذ فتيانا صباح الوجوه، لم يصب قلوبهم وأبدانهم شيء من دنس الجاهلية وأمراضها وحرامها، ويربيهم ويغرز فيهم عزة الإسلام، ويجعلهم صفوفًا.

نعم، في المجتمع المستخذي الذي طال خضوعه للطغيان، تجد (النفس تميل إلى الإسفاف، وتخلد إلى الراحة، وتهوى الهين من كل أمر.

ولكن في النفس –على هذا– نزوعا إلى العلاء، وشغفا بالارتقاء، وحنينا إلى المكارم، وشوقا إلى العظائم.

إن فيها لجمرة يغطيها الرماد، وشرارة يقدحها الزناد، فإن وجدت نافخا في جمرها وقادحا لشرارها استيقظت، وتحفزت، وعملت، وصعدت. وكلما ذاقت لذة العمل والرقي زادت حبا له، وهياما به) [1].

ولهذا فإن المهاجر مخطئ، إلا هجرة صاحب سر يخشى عليه، أو هجرة صاحب فقه إلى من يحتاج إليه، أو هجرة من يخشى الفتنة في دينه.

أما السكوت فأبعد عن الصواب، **(والذين يبصرون بالظلم في كل طريق، ويلتقون بالبغي في كل ثنية، لا يحركون يدًا ولا لسانًا، وهم قادرون على تحريك اليد واللسان أولئك لم يعمر الإسلام قلوبهم، فلو عمرها لانقلبوا مجاهدين)** [2].

ومن هاهنا لا يكون المؤمن العامر القلب إلا متحركا محركًا، أما المتباطئ الذي يعد بالالتحاق بعدما تظهر بوادر النجاح فإنما يعد وعد الضعاف.

صاح ما الحر من يثور على الظلـ ـم وقد ثارت لحقها الأقوام

---

(١) الشوارد لعزام / ٣٥٣.

(٢) دراسات إسلامية لسيد قطب/ ٢٩.

إنما الحر من يسير إلى الظلـــــم فيصميه والأنام نيام [1]

إنما تقدسنا الدعوة

وكان أعيان الفقهاء القدماء يميزون مثل هذه المعاني أكثر من المتأخرين، وأرجعوا العز الذي عرفه صدر الإسلام إلى وجود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن ثم، قالوا: إنه (**هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد، وقد كان الذي خفنا أن يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، إذ قد أندرس من هذا القطب عمله وعلمه**) [2].

قال ذلك الغزالي /.

فللذي رآه، فتش عن المخرج والمستدرك فلم يجد إلا أسلوب الطلائع، وراح يحلي الأجر لمن يكون طليعة، ويحكر له درجات القرب، ويرفع الأبصار إلى ذراها، ويصيح أنْ أيها الناس:

(**من سعى في تلافي هذه الفترة، وسد هذه الثلمة، إما متكفلا بعملها، أو متقلدا لتنفيذها، مجددًا لهذه السنة الدائرة، ناهضا بأعبائها، ومتشمرًا في إحيائها كان مستأثرا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبدًا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها**) [3].

وأما الذي قررناه من أمر الهجرة فقد سبق إليه الصحابة ي.

---

(١) ديوان المثاني لعزام/ ٨٠.

(٢) (3) إحياء علوم الدين ٢/ ٣٠٦.

قال ابن تيمية:

(قال أبو هريرة: لأن أرابط ليلة في سبيل الله أحب إلى من أن أقوم ليلة القدر عند الحجر الأسود. ولهذا كان أفضل الأرض في حق كل إنسان:

أرض يكون فيها أطوع لله ورسوله، وهذا يختلف باختلاف الأحوال، ولا تتعين أرض يكون مقام الإنسان فيها أفضل، وإنما يكون الأفضل في حق كل إنسان بحسب التقوى والطاعة والخشوع والخضوع والحضور، وقد كتب أبو الدرداء إلى سلمان: هلم إلى الأرض المقدسة!فكتب إليه سلمان:

إن الأرض لا تقدس أحدًا، وإنما يقدس العبد عمله، وكان النبي ﷺ قد آخى بين سلمان وأبي الدرداء، وكان سلمان أفقه من أبي الدرداء في أشياء من جملتها هذا) [1].

فالعمل هو الذي يقدس صاحبه، وأفضل العمل: أمر بمعروف ونهي عن منكر، وأفضل الأمر والنهي: ما كان في بلد يحتاج إليه ويثمر فيه، فلا تخدع نفسك بزهد مجرد يقودك إلى الهجرة عن موطن النفع بل أصغ لابن القيم يشرح لك أمر حين يقول:

(ليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله، وأكثر الديّانين لا يعبئون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله ودينه وكتابه، فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلا عن أن يريدوا فعلها، وفضلا عن أن يفعلوها. وأقل الناس دينا، وأمقتهم إلى الله: من ترك هذه الواجبات، وإن زهد في الدنيا جميعها،

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٨/ ٢٨٣.

وقلَّ أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته، يبذل عرضه في نصرة دينه [1].

والنبي ﷺ **(كانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده، ولهذا كان أرفع العالمين ذكرًا، وأعظمهم عند الله قدرًا)** [2].

ولك فيه ﷺ أسوة وقدوة.

* * *

(١) عدة الصابرين/ ١٢١.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٣٨.

obeikandl.com